الفصل الثانى

شاعران ومذهبان

- بيـــن الشـــــاعرين .
- ســنية ابــن المعتـــز .
- تشيع تميم بن المعـز .

obeikandl.com

العباسيون والعلويون

يرجع نسب العباسيين إلى العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، ويرجع نسب العلويين إلى علي ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، وكلا الفرعين وثيق الصلة بالنبوة ، وكلا الفرعين يرى أن تكون خلافة المسلمين في بيت بني هاشم ، ومن ثم اتحدت فكرة العباسيين والعلويين في موقفهم من قضية الخلافة ، وعندما آل أمرها إلى علي وتمرد نفر من أتباعه انبرى عبد الله بن عباس لحوارهم والدفاع عن ابن عمه ،

وها هو المبرد يروي لنا في كتابه الكامل موقفاً من هذا الحوار :

قال ابن عباس : ما الذي نقمتم على أمير المؤمنين ؟ .

قالوا : قد كان للمؤمنين أميراً فلما حَكَّمَ في دين الله خرج من الإيمان فَلْيَتُبْ بعد إقراره بالكفر نَعُدْ له ، فقال ابن عباس : لا ينبغي لمؤمن لم يَشُبْ إيمانه شك بأن يقر على نفسه بالكفر ، قالوا : إنه قد حكم ، قال : إن الله عز وجل قد أمرنا بالتحكيم في قتل صيد فقال عز وجل : يحكم به ذوا عدل منكم فكيف في إمامة قد أشكلت على المسلمين ، فقالوا إنه قد حُكِّمَ عليه فلم يَرْضَ ، فقال : إن الحكومة كالإمامة ، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته ، وكذلك الحكمان لمَّا خالفا نبذت أقوالهما ، فقال بعضهم لبعض : لا تجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم ، فإن هذا من القوم الذين قال الله عز وجل فيهم " بل هم قوم خَصِمُون " ، وقال عز وجل : " وتُنْذِرَ به قوماً لداً " (١) .

ويبدو أن موقعتي الجمل وصفين كانتا نقطة تحول في تاريخ العلاقة العباسية والعلوية ، فمنذ ذلك الحين ظهرت فكرة التشيع لعلي وأبنائه من بعده ، وأحقيتهم في الخلافة على اختلاف في الأبناء وفروعهم دون بني هاشم ، وهذا يعني استبعاد بني العباس وعدم أحقيتهم في الخلافة ، ولم يأخذ هذا التحول طابع صراع أو نزاع ظاهري ، وإن ظهرت آثاره في مجريات الأحداث فيما بعد ، فقد اعتبر العباسيون والعلويون بني أمية مغتصبين ، وأن آل الرسول صلى الله عليه وسلم أحق بالخلافة منهم ، ولذلك أنكروا عليهم الأمر في صور مختلفة ، اتخذت طابع الثورة المسلحة حيناً ، والدعوة السرية للقضاء عليهم حيناً آخر ، وقد قام بالدور الأول العلويون ، ويشهد تاريخ علاقتهم ببني أمية صراعاً دموياً عنيفاً ، ففي عهد يزيد استشهد الحسين ، وفي سنة ٦٥ هـ ، قامت حركة التوابين للأخذ بثأره في خلافة عبد الملك بن مروان وخرج زيد بن علي زين العابدين بن الحسين يطالب بالخلافة في زمن هشام بن عبد الملك فقتلوه وصلبوه وأحرقوا

---

(١) الكامل للمبرد ، جـ ٢ ، مطبعة صبيح ، ١٣٤٧هـ ، ص ٧٨ .

جثته ، وقد لقى ابنه يحيى ما لقى أبوه [1] .

أما العباسيون فقد استغلوا موقفهم الموحد مع بنى عمهم العلويين فى المطالبة بالخلافة ، واستخدموا العلاقة استخداماً ذكياً فقد غلّفوا دعوتهم بالغموض وراحوا يدعون للرضا من آل محمد دون أن يحددوا من هو المقصود بذلك أمن أبناء العباس أم من آل علي ؟ وكلاهما – كما قلت – وثيق الصلة بالنبوة والرضا من آل محمد . ومما لا شك فيه أن كثيرين ممن استجابوا لتلك الدعوة وخاضوا غمار الثورة مع العباسيين قد فهموا أن المقصود من دعوة الثائرين إلى (الرضا من آل محمد) هم أبناء على ، كما يدل على ذلك موقف أحد شعرائهم الذى راح يفسر دعوة الرضا بأنها دعوة لأبناء على [2] ، ونجح العباسيون فى تأسيس دولتهم عام ١٣٢ هـ ، وظن العلويون أنهم أصحابُ الأمر والنهى ، وأن الحق عاد إليهم ، لكنهم لم يلبثوا أن تكشفوا الحقيقة ، وهى أن الخلافة عباسية وليست علوية ، فأخذ الصراع يدب بين الفريقين ، وتقابلت فكرة العلوية والعباسية تقابلا واضحاً عسكرياً وفكرياً ، ففى عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور خرج محمد بن عبد الله النفس الذكية واستولى على المدينة فقتله المنصور ، ثم خرج أخوه إبراهيم بالبصرة فقتل فى قرية بالقرب من الكوفة ، وقتل فى هذه المعارك كثير من البيت العلوى ، وقبض على عدد منهم حبسهم المنصور فى سرداب على شاطىء الفرات بالقرب من الكوفة لا يصل إليهم ضوء حتى ماتوا ، واستمر النزاع بين العلويين والعباسيين فى خلافة المهدى والهادى والرشيد .

وحاول المأمون أن يقرب الخلاف بين العباسيين والعلويين ، فراح يدير الحوار معهم حول أحقيتهم فى الخلافة ، ولم يكتف المأمون بالحوار بل عهد بالخلافة من بعده لعلى بن موسى من العلويين فثار العباسيون لذلك ، ثم مات على قبل المأمون ، وعادت الأمور سيرتها الأولى [3] ، وفى سنة ٢٣٥ هـ ، أتى المتوكل بيحيى بن عمر بن حسين بن زيد بن على ابن أبى طالب من بعض النواحى فضربه ثمانى عشرة مقرعة وحبس ببغداد .

وفى سنة ٢٥٠ هـ ، دخل يحيى الكوفة واجتمعت إليه الزيدية ودعا إلى الرضا من آل محمد وكشف أمره فقتل فى عهد الخليفة العباسى المستعين ، وذكر عن بعض الظاهريين أنه حضر مجلس محمد بن عبد الله وهو يهنأ بمقتل يحيى بن عمرو بالفتح وجماعة من الهاشميين الطالبين وغيرهم

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ، جـ ٢ ص ٣٧ ، ٤٠ ، ١٤٠ .

(٢) المرجع السابق ، جـ٢ ص ٢٣٤ .

(٣) مروج الذهب للمسعودى ، جـ ٤ ص ٢٨ .

حضور فدخل عليه داود بن القاسم فقال : أيها الأمير إنك لتهنأ بقتل رجل لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حياً لعزى به وخرج وهو يقول :

يا بَنى طاهر كُلُوه وَبِيًّا ... إنَّ لحْمَ النبى غيرُ مُرَىٍّ

إنَّ وِتْرًا يكون طالبهُ اللـ ... ـهُ لوتْرٌ نجاحُهُ بالحَرِىِّ (١) .

وفى هذه السنة ذاتها خرج الحسن بن زيد العلوى بالرى ودعا للرضا من آل محمد ، وهكذا تحددت علاقة العلويين بالعباسيين . على أنه ينبغى أن نلاحظ أمراً فى هذه العلاقة هو أن الخصومة لم تك دائمة بين أبناء العم ، ولم تكن عامة فقد قرب العباسيون إليهم بعض العلويين ولم يحاربوا إلا الخارج عليهم ، ومع ذلك فبين الحين والآخر تخرج فرقة من فرق الشيعة وتطالب بالخلافة وتحدث الفتنة ، ويتجدد الصراع بين الطالبيين والعباسيين .

وقد ذكر أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه (مقاتل الطالبيين) أن عدد من قتل فى عهد الخليفة العباسى المهتدى خمسة عشر نفراً ، وفى أيام المعتمد تسعة عشر ، وفى عهد المعتضد رجلان ، وفى عهد المكتفى أربعة ، وفى أيام المقتدر عدد غير قليل (٢) .

بين الشاعرين

شهد القرن الثانى للهجرة ميلاد حضارة عربية فى بيئتين متباعدتين هما : بيئة العراق فى المشرق ، وبيئة الأندلس فى المغرب وقد أدى اختلاف الحكومتين إلى التنافس فى شتى مظاهر الحياة ، ومن أهمها الحياة الثقافية ، ولما كان المشرق مصدر اللغة العربية ، التى حوت عدة حضارات عالمية . فإنه صدرها إلى مختلف الجهات .

ومن ثم حرص علماء المغرب وأدباؤه على التشبه بعلماء المشرق وأدبائه وكلما برز فيهم شاعر راحوا يتلمسون أقرب الشعراء إليه من أفذاذ المشرق ، فابن هانىء الأندلسى متنبى الغرب ، وابن زيدون بحترى الغرب ، ولعل أوضح صورة لهذا التعلق بالشرق هو حرص المغاربة على توضيح نسبهم والرجوع به إلى القبائل العربية .

---

(١) الطبرى جـ ١ ص ٢٧٠ .

(٢) مقاتل الطالبيين . لأبى الفرج الأصفهانى . القاهرة ، ١٩٤٩م . ص ٦٨٥ وما بعدها .

* وَبِيًّا : من وبؤت الأرض وباءً فهى وبيئة : أى كثر فيها الوباء .

غير مرىٍّ : من مَرَأ الطعام ساغ فهو مرىءٌ ، أى لحم النبى غير سائغ .

وظلت هذه الظاهرة منتشرة منذ الفتح العربى للأندلس حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، وهو القرن الذى نافست فيه بغداد عواصم إسلامية أخرى اكتمل نمو شخصيتها وحملت عبء ريادة الحضارة الإسلامية والعربية والدفاع عنهما .

وقد تجلى مظهر نمو الشخصية الأندلسية فى مؤلفاتهم التى نسبوها إلى بيئاتهم وراحت تتحدث عنهم مثل " الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة " ، " نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب " ، " الإحاطة فى أخبار غرناطة " يقول ابن بسام : " إن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة . . . فغاظنى منهم ذلك وأنفت مما هنالك غيرة لهذا الأفق القريب الذى تعود بُدُوُّهُ أهلَّة ، وتصبح بحارُه مهاراً مُضْمَحِلَّة ، وليس محقا من قصر العلم على بعض الزمان واختص أهل المشرق بالإحسان " .

فلا غرابة فى أن يتشبه تميم بن المعز لدين الله الفاطمى وهو ربيب مدرسة الغرب بالشاعر العباسى عبد الله بن المعتز ، وهو من أعلام مدرسة الشرق ، لا سيما وأن الشاعرين أميران وهما أبناء عمومة ، ولكل منهما نصيب فى رقة الشعور وعذوبة الشعر . ولم يتباعد بينهما الزمان فبين مقتل ابن المعتز وميلاد تميم قرابة الأربعين عاماً فقط . وقد لاحظ القدماء كما لاحظ الدارسون المعاصرون تشبه تميم بعبد الله بن المعتز .

يقول ابن فضل الله العمرى : تشبهَ تميم بابن عمه ابن المعتز وتشبثَ بذيله "

ويقول ابن الأبار عن تميم : " شاعر أهل البيت العبيديين " . غير منازع ولا مدافع ، وكان فيهم كابن المعتز فى بنى العباس غزارة علم ومعاناة أدب وحسن وإبداع تخيل ، وكان يقتفى آثاره ويصوغ على متاحيه فى أشعاره " .

والذى يقلب ما تبقى من أشعار تميم يجده مقتفياً أثر ابن المعتز يعارضه معجباً حيناً ، ويناقضه مختصماً حيناً آخر ومن معارضاته .

قال ابن المعتز يصف ليلة من لياليه التى لم ينسها ، قضاها فى الشراب والتغزل فى ساقيه ، ودعا على عذاله بالويل ، وأعلن عدم اكتراثه بهم :

---

(١) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، أبى الحسن على ابن بسام ، جـ ١ ص ٢ .

(٢) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، ابن فضل الله العمرى .

(٣) الحلة السيراء لابن الأبار ، تحقيق : د . حسين مؤنس ، جـ ١ ط ، ، القاهرة : الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣م . ، ص ٢٩١ .

لا عـذر للعـاذل فـي الكـاس ... فما أرى فـي الكـأسِ من بـاسِ
ويلـي مـن النـاس ومـن لومهـمْ ... مالقـيَ النـاسُ مـن النـاسِ
مُهَفهفِ الخصر هضيمِ الحشا ... مُشـوقٍ بالوعـد مَكـاسِ
وقـام فـي العاتـقِ منديلُـهُ ... يُديـرُ كأسـاً بـين جـلاسَ
وشـمّرَ الذيـلَ إلـى خصـرهِ ... وحثنـا بالرطـل والكـاسِ
وطـالمـا عذّبَنـي هجـرُه ... ووكـلَ القلـب بوَسـواسِ
لما أتتنـي رُسـلُه بالرضـا ... أنسـيتُ مامـرَّ علـى راسـي
ولـم أزل والليـلُ سـترٌ لنـا ... مـن دون رُقـاب وحـُراس
أشكو إلـى غـمزةِ عينيـه وَمَـا ... قاسـيتهُ مـن قلبـه القاسـي
فـي ليلـة مـا مثلهـا ليـلة ... لستُ لهـا مـا عشـتُ بالنـاسـي (١)

ويعارض تميم هذه القصيدة بأخرى يدعو فيها إلى التمتع بالمسرة والشباب ويصف ساقيه مستهيناً بعداوة العذال في حبه له ، ويبرز مفاتن الطبيعة وتهيىء الجو الصحو للشراب :

تمتـعْ بالمسـرّة والشـبابِ ... فقـد بـرزَ الربيـعُ مـن الحجابِ
فَحُبـك والزمـان وأنـت فيـه ... شبابٌ فـي شبـاب فـي شبـابِ
فحَيـيَّ على المُدام بكفِّ سَـاقٍ ... يُديـر الخمـرَ مـن بـرْد عـذابِ
يُديـر بريقـه ويَديـهِ خمـراً ... شـرابٌ فـي شـراب فـي شـرابِ
كـأن يدَيـهْ حاكـتْ وُجنتَيـه ... بنـارٍ يصْطَلـى منهـا لهـابِ (٢)
يـداهُ ثـم وجنتـهُ وقلبـي ... شهـابٌ فـي شهـاب فـي شهـاب
إذا مـا أكثـر العـذّال فيـه ... وزادَ علـيَّ ترديـدُ العتـاب
عداوتُهـم وعَذْلهـم جَميعـاً ... سـرابٌ فـي سـرابٍ فـي سـرابِ
لعمـرك إنمـا الدُّنيـا عـروسٌ ... جلاهـا الغيثُ من تحت النقـابِ
بَنَفْسَـجُهـا ونرجِسُـهـا وَوَرْدُ ... خِضـابٌ فـي خضـابٍ فـي خِضـابِ
فهَرِقْ مـن دَم الإبريـق راحـاً ... فـإنَّ الغيثَ ممنـوعُ السحـابِ
فإبريقـي وكأسـي والفـوادي ... سحاب فـي سحاب فـي سحاب

---

(١) ديوان ابن المعتز ، ص ٢٦٩ .

(٢) لهاب أي .. اتقاد النار وشدة استعارها .

فتم الشرب إن الصحو عـزْمٌ ... وللنيـروز حـظٌ فـى الشـراب
فرأيـك ثـم شـربُك والغـوانى ... صَوابٌ فى صواب فى صواب (١)

والجو العام المسيطر على قصيدة تميم يوحى بتفتح نفسية صاحبها للحياة ، ولذلك دلالته على ظروف الشاعر وحياته العامة والخاصة ، فتميم نشأ فى كنف خلافة شابة فتية توسع سلطانها وتمده فى اتجاهات عدة . وتميم وإن حرم الخلافة فحياته بين أب خليفة أو أخ خليفة لم تتقلب بهما الأيام والمحن .

أما الجوالعام لقصيدة ابن المعتز فنرى فيها قساوة الزمان والإحساس بالمرارة على الرغم من تجرعه كأس اللذة فهى لذة مشوبة بالمرارة لا يكاد يتجرع كأسه فى نشوة حلوة حتى تثور فى نفسه مكايد الناس وأحقادهم فيصب غضبه عليهم فى صورة العذول اللائم . وحين يتحدث عن محبوبه تطفو صورة الخلف والهجران والشكاية وقساوة القلب . إن تميماً يبدو فى ملذاته رجلاً مقبلا على الدنيا ، وابن المعتز يبدو فى ملذاته رجلا يودع الدنيا ، وكان لظروفه العامة والخاصة أثر واضح فى ذلك الشعور .

ولعل تميم حقق ما يصبو إليه من تلك المعارضة فكلا الشاعرين يدعو إلى الشراب والتمتع باللذات ، لكن دعوة ابن المعتز دعوة فاترة فت فى عضدها استخدامه الأسلوب الخبرى الذى يحتمل الصدق والكذب ، ومع أنه أعلن رأيه ، لكنه كان رأياً بارداً توحى به كلمة لا بأس أما تميم فقد دعا إلى الشراب أمراً وفى أمره إغراء توحى به كلمة " تمتع " ثم هو يكرر هذه الدعوة المصحوبة بوسائل الإغراء المختلفة فمرة يقول :

« فحـيَّ علـى المـدام بكـف سـاق »

ومرة أخرى يقول :

« فأهـرق مـن دم الأبريـق راحـا »

ولكلا الشاعرين موقف من العذول . أحدهما لا يأبه به ، ولا يقيم له وزناً والآخر مشغول به تارة يناقشه ويقارعه بالحجة إذ يقول ابن المعتز :

« لا عـذْر للعـاذل فـى الكـاس »

وكأنه يريد أن يقنع العاذل بضرورة تناول الشراب ، وأنه لا عذر له ، وتارة أخرى يدعو عليه بالويل والثبور والهلاك :

(١) ديوان ابن المعتز ، ص ٣٨٣ .

« ويـــلٌ مـن النـــاس ومـنْ لَومِهـــــــم »

ولا شك أن موقف تميم غير الآبه بالعذول يناسب جو الفكرة العامة وهى، الدعوة إلى التمتع بالسرور ، لأن المدعو إن تدبر وتفكر فى أمر العذول فقد يتراجع ، وهذه المناقشة المنطقية التى أثارها ابن المعتز مدعاة إلى التدبر والتفكير .

وموقف الشاعرين من الطبيعة مختلف فلم يشر ابن المعتز إلى الطبيعة ولم يستمتع بها استمتاعه بالعاشق والكأس ، ولم يستخدم الطبيعة ومشتقاتها فى لبنات بنائه الفنى . حقاً : لقد ذكر الليل واستمتع به لكنه لم يستمتع بهدوئه أو نجومه أو أى مظهر من مظاهر الجمال فيه ، وإنما استمتع به لأنه وقاية له من ذلك العذول الذى كان شغله الشاغل ، ولا شك أن ذلك العذول أفسد عليه ملذاته وإن اعترف الشاعر بغير ذلك .

أما موقف تميم من الطبيعة فهو موقف الشاعر المصرى ابن البيئة المصرية ذات المناخ المعتدل والجو الصحو توحى إليه بالجمال فتقفز صورة الربيع بمدلولاتها الشعرية فى البيت الأول من القصيدة ثم يفسر هذا الجمال بأن الدنيا أصبحت عروساً بعد أن نزل الغيث وأنبت الزهور والورود ، وقد تزينت الطبيعة بهذه الزهور المختلفة .

وفى صورة المعشوق تبدو الإثارة قوية صارخة فى المعشوق الذى صوره تميم حين يقرن الشراب من الكأس بالشراب من الشفتين ، وحين يلون صورته بالنار التى صيغت كفى المحبوب ووجنتيه ، ثم يزيد الإثارة عنفاً حين يمزج شعوره بهذه الفتنة الصارخة ، وكأنما اشتعل قلبه ، وتلك قمة اللذة التى تشتهيها النفوس ، أما صورة الساقى والمعشوق التى قدمها ابن المعتز فهى وإن بدت حسية لكنها خالية من الإثارة ، وقد أفسد الإثارة فيها ذلك الوصف الخلقى قبل أن تثمر الصفات الحسية ثمارها فى نفوس القارئين والسامعين فهو يقول :

« مهفهـف الخصـــر مضيـــم الحشـــا »

وقبل أن تأخذ النفس غايتها فى تصور بقية مفاتن الجسم يقاطعه الشاعر بهذا الوصف الأخلاقى :

« مشـــوق بالوعـــــد مكـــــاس »

وتلك صفة قد ينفر منها بعض الناس ، وحتى الذين لا ينفرون فإن الشاعر أفسد عليهم استمرار المتعة الحسية بتلك الصفة الأخلاقية ، فإذا حدثنا الشاعر عن أثر الفتنة عليه وجدنا فتوراً آخر فى الإثارة :

وطالمـــا عذّبنـــى هجـــره وكـــلُّ القلـــب بوســـواسِ

ومن ثم ، فإن تميماً بتصويره المعشوق يضيف عنصراً قوياً إلى الجو العام للقصيدة وهو الدعوة إلى التمتع بالملذّات .

ويشد انتباه الدارس ذلك الصخب الموسيقى فى قصيدة تميم ، وقد اختار لها وزناً عالى النبرة هو بحر الوافر " مفاعلتن . مفاعلتن . فعولن " ، وهو من البحور ذات الجرس الموسيقى الصاخب ، ثم يثير الدارس أيضاً تلك المقابلة التى أجراها فى معظم الأبيات . وهى مقابلة تختلف عن مدلولها البلاغى لأنها تمت بين أمور ثلاثة عددها الشاعر فى الشطر الأول من البيت ، ثم قابلها بصفة واحدة ، وصفة ممتزجة أو مركبة أو مؤكدة ، فالرأى والشراب والغوانى فى البيت الأخير . . . صواب مؤكد فى نظر تميم . . . ولكن فى بعضها الآخر لم تستوف المقابلة عددها الثلاثى مثل البيت [يدير بريقه ويديه خمراً ... شراب فى شراب فى شراب] . وكلمات تميم فى هذه المعارضة " مفردة ومركبة " تتسم بالرشاقة ، وأعنى برشاقة الكلمة تلك العذوبة التى توفرت لها نتيجة مراعاة أمور مدركة بالحس اللغوى أو البلاغى أو النحوى ، وأخرى مدركة بالوجدان والأحاسيس الشعرية وهذا كله يناسب الجو العام لموضوع القصيدة أكثر من أسلوب الابداع الفنى والتألق الفكرى الذى تميز به شعر ابن المعتز كما سأفصله فى حينه .

وإعجاب تميم بابن المعتز يرتبط بذلك الإحساس الذى أشرت إليه سلفاً ، وهو أن أدباء الشرق كانوا دائماً قبلة أدباء الغرب ، ولعل تميما وقد استأنس فى نفسه قوة الشاعرية أراد أن يثور على ذلك الشعور فراح يتعقب ابن المعتز ، ويعارضه فى أكثر من قصيدة ، ويطلب التحكيم فى تلك المبارة . قال ابن المعتز :

شُغلتُ بلذّة القبلِ ... ووَعد الكتْب والرُسل
ومعشوق يُواصلنى ... بلا مَطْل ولا علل
أتَى عَجلاً يطيرُ به ... جناحُ الخوْف والوَجل (١)

وقرأ تميم هذه الأبيات فعارضها على وزنها وأنفذها إلى أبى عبد الله الرسى (٢) وحكمه فى الاختيار بين المطبوعين . قال تميم :

شغلت بخلسة المُقلِ ... ومزْج الكُحْلِ بالكَحَل
وما اعتَلَّتْ به الألحا ... ظ فى أجفانها السُّجُل
ومعشوق يكاد ينو ... ب خدّاه من القُبَلِ
يعاتبنى ويعْتبنى ... ويُغضبنى ويغضبُ لى

---

(١) ديوان ابن المعتز ، ص ٣٨٣ .

(٢) ابن الرسى : هو أبو عبد الله الحسين بن ابراهيم من نسل على بن أبى طالب . انظر هامش ديوان تميم ، ص ٣٥٠ وما بعدها .

تلاقينا بلا وَعْدٍ ... ولا كُتُبٍ ولا رُسُلِ
يُشَجِّعُنا تعاشقنا ... وتَخْذُلنا يدُ الوَجِلِ
فالثمَني حَصَى بَرَدٍ ... تفجرُ من جَنَى عَسَلِ
ويَرْقَعَ وَجْهه عني ... بِظَاهر حُمْرة الخجلِ
غَزَالٌ لم أرُحْ يوماً ... به خَلْوا من الوَجَلِ

فبعث إليه أبو عبد الله بن الرسى بذلك الحكم :

وحقٌ تودُّد الخَجِلِ ... وطيبِ تَقَرُّبِ الأملِ
وحقِّ الحبِّ إذْ يأتي ... بحسْنٍ تكسُّرِ المقلِ
وما أبْداهُ مَنْ أهوا ... هُ مِنْ صَدٍّ ومن عِلَلِ
وحقكَ يا أميري ظلْـ ... ـتُ في قَصْفٍ وفي جَذَلِ
لَشِعْرُكَ مُشبه الما ... ذي يُرْوِي صَدَى الغُلَلِ
وثوبِ البِرِّ يلبُسه ... ذي أشْفَى على العللِ
وحلَّتُه إذا نُشِرَتْ ... تُضَعْضِعُ سائرَ الحُلَلِ
فقولي كلُّه صِدْقٌ ... وعبدُ اللهِ يشهدُ لي

سنية ابن المعتز

يمكننا أن نتتبع نزعة السنية عند ابن المعتز من خلال موقفه من الخلافة والخلفاء .

ابن المعتز والخلافة :

أما موقفه من الخلافة العباسية فهو ربيبها ، ولد فيها وجده المستعين على كرسيها ، وعاش طفولته وأبوه المعتز يتولى أمرها ، وعندما كبر وأحس بالخطر المحدق بها من كل جانب أخذ يحث أهله على الحفاظ عليها :

مَن مُبْلِغٌ قومي على قُربهم ... وبُعْدِ أسماع عن الوَاعظين
هبُّوا فقد طالتْ بكمُ رقدةً ... ن بعدها أحْسبُ لا ترقدون
حُثُّوا مطايا المجدِ ترقلْ بكمُ ... ناجينَ بين النَّاس أو مُعْذِرين
إنِّي أرى الأعداء قد رسَخُوا ... نَوَاهياً أنتم لها حافرون
عانقتمُ الأحلامَ في مَضْجع ... سَيُنْبِتُ الشوْكَ لكم بعْد حين
يَالَهْف قُربايَ على مَعْشرَ ... إنْ لم تثق بالله ما يتقون (١)

ويصور عاصمة الملك بصورة تنبىء عما آل إليه حال الخلافة العباسية واستبداد الولاة والأتراك بها ، ويقارن بين حالتين مرت بهما : الأولى عندما كان حكامها الأقوياء وجيوشهم الجرارة تحجب قرص الشمس ؛ وقد فرضوا ارادتهم على الوجود .

عَهْدِي بها والخيلُ جائلةٌ ... لا يستبين لشَمْسها قُرْصُ
ومعَاشرٌ وَجَدُوا مَشيئَتهم ... وبما تحبُّ نفُوسُهم خُصُّوا
فمضى بذاك العيش آخره ... والهم مما سرُّ مقْتصُّ

والحالة الثانية هي المرحلة التي عاش فيها الشاعر ، وقد استبد الوزراء الأتراك بالحكم واستهانوا بالخلفاء ، ونرى الشاعر هنا يحمل حملة شعواء على هؤلاء الولاة .

أفَما ترى بلداً أقمت بها ... على مساكِنِ أهْلِه خُصُّ
وَوُلاتُه نبطٌ زَنَادِقةٌ ... مَلأى البطون وأهلها خمْصُ
غَلَبتْ خِيَانتهم أمانتَهم ... طغى على تَقْواهم الحِرْصُ (٢)

وكان لعبد الله بن المعتز موقف من توليه الخلافة إذ اشترط لقبولها ألا يراق دم وألا تدور

(١) ديوان ابن المعتز ، ص ٤٤٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٤ وما بعدها .

حروب فأخبره العارضون بأن الأمر يسلم إليه عفواً وأن جميع من وراءهم من الجند والقواد والكتاب قد رضوا به فبايعهم على ذلك [1] . ولم يكن الدافع لقبولها – وهو العليم بحالها وما آل إليه مصيرها على يد الوزراء ورجال القصر – إلا لينقذ الخلافة من الضياع لا سيما وأن " المقتدر " نصبوه خليفة وهو ابن ثلاث عشرة سنة وشهر وواحد وعشرين يوماً [2] . وابن المعتز في سبيل الوفاء لسنيته وانقاذ الخلافة خاض تجربته المريرة وقبل الخلافة ودفع حياته ثمناً لذلك سنة ٢٦٩ هـ ، وهو الذى طالما سخر منها وتهكم بها وبالحكم .

طَوْتكم يابَنِي الدُّنيا ركَابِي ... وحارَبَكُم رَجَائي وارتِغَابِي
حجَبْتُ بِهمَّتي مِن أن تَرونِي ... أراقِبُ منكمُ رَفْعَ الحِجابِ
لَئِنْ عُرِّيتُ مِنْ دُولٍ أراها ... تجدَّدُ كلَّ يومٍ للكلابِ
لقد خَلَفْتُها بعدَ ابتذالٍ ... لها ومَلَلْتُها قبلَ الذهابِ [3]

هذا الموقف المتأبى على الخلافة الساخر منها المستهين بمن يليها لا يتعارض وقبوله لها ، لأنه موقف موحد يلتقى عند غاية واحدة وهو الإخلاص للبيت العباسى وللخلافة العباسية والسنية .

وفى موقف آخر نراه ساخراً من الولاة الذين استبدوا بالحكم وأفسدوا فى الرعية :

شُخُوصُ ولايةٍ كَشخُوصِ عزْلٍ ... على دَهْشٍ وعِزٌّ مثلُ ذلِّ
ومجنون يخلَّصُ بعدَ حبسٍ ... وأقيادٍ وسلسلةٍ وغلِّ
ولم تَقضِ الحقوق ولا اقْتضَاها ... بِتَسْلِيمٍ وتَوْدِيعٍ لخلِّ
ولم أرَ قَبْلَه ريحاً عصوفاً ... مجسَّمةً وطُوماراً برحْلِ
وأحْسَبُها سَيَسْلُوها سريعاً ... ويرجع خائباً يَرْغُو ويُفْلِي
وَهَجْهُ الغزْلِ يضْحك كل يوم ... ويَطبِزُ فى قَفَا الوالى المولِّ [4]

هذا قدر هجومه على أعداء الخلافة ، وما كان له أن يتعدى ذلك مهما دفعه الحرص على خلافة أسرته مع هذا النفر من الأعداء ، فالخلفاء مستضعفون والحاشية مستبدة ، وولاة ظلمة ،

---

(١) الطبرى ، جـ ١ ص ١٤٠ .
(٢) المرجع السابق ، ١٣٩ .
(٣) ديوان ابن المعتز ، ص ٤٢ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٧٨ .
* ويَطبز أى : يملأ

ولكن الأمر والنهى ما يزال بأيديهم على تفاوت بينهم فى تنفيذ الأوامر والنواهى ، والشاعر ما يزال يعيش بين ظهرانيهم ، ويأخذ عطاءه من أيديهم .

ولكن الأمر مختلف مع غيرهم من الأعداء ، وقد نال الطالبيون من هجومه قدرا موفورا بين الحدة والاعتدال ، لأنه رأى فيهم خطرا حقيقياً على أسرته . أما القرامطة الذين خرجوا على الخلافة العباسية ، وأصبحوا شوكة فى جبينها وهى تعانى من التسيب الداخلى فكانوا هدفاً لابن المعتز ، يهاجم عقائدهم ويفند مذهبهم ، فيقول فى أرجوزته التاريخية :

والقُرمطيـــُّون ذوُو الآجـــام ... طغـوا فقـدْ بـاؤُوا مـع الأنـام
وشـــرَّعُوا شـــرَائع الفســـاد ... وأهلكـُوا إهـْلاك قـَوم عـاد
كانـــوا يقولـــون إذا قُتلْنـــَا ... صَبـْراً علـى ملَّتنـــا رَجعْنـا
مـنْ بعـْد أيـــام إلـــى أهلِيْنـــا ... فَقَبَّحَ الرحمـنُ هـــذا الدينـا (١)

وعندما حقق المكتفى نصره عليهم وكسر شوكتهم راح ابن المعتز يهلل :

أقـولُ لما تبـدَّى راكـبُ الفيـلِ ... وصحَّ ما كانَ من قَال ومنْ قيـلِ
يُزَفُّ فى القيد محمولًا إلى سقر ... مقسَّماً بـين تنضيـج وتبطيـلِ
وأقبـلَ المكتفـى باللـهِ يتْبعـُه ... فَأكثَر النَّاسُ من حَمدٍ وتهليـل (٢)

ابن المعتز وخلفاء بنى العباس :

تقلب على كرسى الخلافة في الفترة التى عاشها عبد الله بن المعتز من سنة ٢٤٧ هـ – ٣٠٦ هـ ، سبعة خلفاء هم المستعين والمعتز سنة ٢٥٢ هـ ، والمهتدى ٢٥٥ هـ ، والمعتمد ٢٥٦ هـ ، والمعتضد ٢٧٩ هـ ، فالمقتدر ٢٩٥ هـ (٣) .

وقد وُلد عبدُ الله فى خلافة جدّه المستعين ، ومات المعتز ولم يبلغ الشاعرُ ثمانى سنوات ، ولم تطل مدة حكم المهتدى أكثر من شهور ، وكان عبد الله قد نفى إلى مكة على إثر مقتل أبيه ثم عاد إلى العراق فى حكم عمه المعتمد ، وفى خلافته نضجتْ شاعرية عبد الله ونعم إلى جواره بحياة هادئة ، أما الخليفة المقتدر فهو آخر من عاصرهم الشاعر من خلفاء العباسيين ، ولم تتضح علاقته به إذ تولى المقتدر الخلافة حدثاً ، ولم يمض عام على توليه حتى قتل عبد الله بن المعتز ، ومن ثم

---

(١) ديوان ابن المعتز ، ص ٥٠٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧٥ .

(٣) راجع تاريخ الطبرى ، الجزء التاسع والعاشر : طبعة دار المعارف .

فإن علاقة الشاعر بالخلفاء تركزت فى ثلاثة هم : المعتمد فالمعتضد ، ثم المكتفى .

وفى كتاب الأوراق للصولى قصيدتا مدح نسبهما إلى عبد الله بن المعتز فى مديح عمه المعتمد يقول فى إحداهما :

أهـلا وسـهلا بالإمـام ومرحبـاً ... لـو أسـتطيع إلـى اللقـاء سَـبيلا

ويتشكك الدكتور الكفراوى فى قبوله رواية الصولى ، ويرى أن هذه القصيدة أشبه بأشعاره فى المعتضد ، ولكنه يؤكد حسن علاقة الشاعر بالمعتمد مستدلا على ذلك بطول ترحم الشاعر على عهد الشباب فى شعره [1] ، ويبدو أن العلاقة بين الشاعر والخليفة المعتضد لم تكن على حال من الرضا ، فالقسوة التى عرف بها المعتضد لم تبق شيئاً من مودة الشاعر الرقيق ، ومع ذلك فقد كان مضطراً إلى مديحه واستعطافه :

لعَمْرى لئن أمْسـى الإمـام ببلْـدة ... وأنْـتَ بأخرى شائقُ القلبِ نـازعُ
لقـد رمـتُ مايُدْنيك منـه وإنمـا ... أتـى قـدرٌ واللـهُ مُعْـطٍ ومانـعُ
وإنىْ كالعطشانِ طالَ بـه الصـدَى ... إليـك ولَكنْ مـا الـذى أنا صَانـع
أيَذْهـبُ عمـرى والعوائـقُ دُونَـه ... على مـا أرى أنىَّ إلى اللهِ رَاجـع
وما أنَا فى الدُّنيا بشـىء أنـا لـه ... سِوَى أنْ أرىَ وَجْه الخليفـة قانـعُ
وهَبْنى أرَيـتُ الحاسـدين تجلـداً ... فكيـف بحُبٍّ ضمَّنتـه الأضالـعُ
وإنى لنعْمـاهُ القديمـة شـاكـرٌ ... وَرَاء بِعَيْنِ النُّصحِ فيـه وَسـامـعُ [2]

ويصف الدكتور الكفراوى علاقة الشاعر بالمعتضد بأنها كانت تقوم على الريبة وسوء الظن المتبادل ، وظلت كذلك حتى النهاية ، وأن الشاعر كان يفخر ويتطاول على الخليفة المعتضد ويعرض به [3] فى مثل قوله :

وكَمْ مَلكٍ قاسـى العقـابِ ممَنَّـعٍ ... قديرٍ على قبْضِ النفُوس مُطَاع
أراه فَيُعْدِينـى مـن المكْرمـا بـه ... فأكرمُ عنـه شـيمتى وطِبَاعـى [4]

وقد اقترن تولى المكتفى السلطة بالقبض على الشاعر ، واضطر الأمير الشاعر أن يستعين بالوزير القاسم بن عبد الله ، ويذكر إحسان أبيه عبد الله من قبل :

---

(١) عبد الله بن المعتز العباسى . حياته وإنتاجه . محمد عبد العزيز الكفراوى . سلسلة فى الأدب والنقد ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٠٤ .

(٢) ديوان ابن المعتز ، ٣٠٧ وما بعدها .

(٣) عبد الله بن المعتز العباسى . حياته وانتاجه ، محمد عبد العزيز الكفراوى مرجع سابق ص ١٠١ .

(٤) ديوان ابن المعتز ، ص ١٠٤ .

هلْ منْ مُعين علىَ أحداث أزماني ... أسأت معتمداً لي بعد إحْسانِ
كلاَّ أليست تقيني للزمان يدٌ ... لقاسم ذات تمكين وَسُلطان
حَمَلْتَ نفسك لا زالتْ معمرة ... ردُّ المكَاره عن نفسي وجُثْماني
كناك كان عُبَيْد اللّه وَاحزَنَني ... عليه ما عشتُ في سرِّي وإعلاني (١)

وبعد أن تقلد المكتفى زمام الأمور أفرج عن الشاعر واضطر إلى مديحه مهنئاً بالخلافة راجياً أن يمحو الآثام التى حلت به :

هَنَتْكَ أمَيرَ المؤْمنينِ خِلاَفةً ... أتتْكَ على طَيْرِ السَّعادة واليُمْن
ولما أقرَّتْ في يديك عنانها ... نشرتَ على الدنيا جَناحاً من الأمْن
فَيَاجُود كفَّيهِ امْحُ آثار بَأْسِه ... فَإنَّ عليه أرش حَسْبي ولم أجْن (٢)

تلك علاقة الشاعر بالخلفاء ، علاقة النفاق والملق والإذعان والخوف ، " ولعل ذلك كان السبيل الوحيد إلى الاحتفاظ بمكانته عندهم أو الحفاظ على حياته " (٣) .

فإذا ذهبنا نفتش عن القيم التى رددها ابن المعتز فى مدائحه خلفاء العباسيين لنرى إلى أى حد تعكس اعتقاده السنى وجدناه يؤكد حرصه على دوام الخلافة ويدعو إلى الحفاظ عليها ، يقول للمكتفى :

فاشدُدْ يديْك على عنان خَلافة ... لك إرثُها وبقاؤُها المعدود (٤)

ويدعو اللّه أن يحفظ الخليفة الهاشمى ولى دولتها :

يارَبِّ أبق وَلِيَّ دولة هاشم ... واجعل عليه من المَكَارِه وَاقيا (٥)

ولا نلمس فى مدائحه الخلفاء حرارة العاطفة أو صدق المشاعر وفى بعض الصفات التى أسبغها عليهم يبدوالفتور بل ونلمس فيها رائحة الاستخفاف ، يخاطب المكتفى قائلا :

---

(١) ديوان ابن المعتز ، ص ١٠٤ .

(٢) الأرش : دية الجراحات . ديوان ابن المعتز ، ص ٤٣٤ .

(٣) عبد اللّه ابن المعتز العباسى . حياته وإنتاجه ، محمد عبد العزيز الكفراوى مرجع سابق ، ١٠٣ .
يقول ابن الأبار : « كان ابن المعتز يدارى المعتضد والمكتفى ابنه ويمدحهما ويمدح عمه الموفق رغبة من التخلص منهم ، لأنه كان أهلاً للخلافة فعصمه اللّه بذلك من هؤلاء » ، الحلة السيراء ص ٢٩٢ .

(٤) ديوان ابن المعتز ، ص ١٧٣ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٤٦٤ .

فيا حسنه يَا إمامَ الهدى ... وخيرَ الخلائف نَفْساً وَأَبْ
إذا ما تربَّع فوق السرير ... وبالتاج مفْرقه معْتصبْ
له راحةٌ يالَها راحة ... ترى جِدَّ نائلها كاللَّعِبْ (١)

فالذى يوحى به هذا النداء " فيا حسنه " – من التدليل الذى يليق بالصبية – يعد استخفافاً فى مخاطبة الملوك والخلفاء ، والصفة التى وصفه بها فى البيت الثانى كانت سبباً فى حرمان عبيد الله بن قيس الرقيات من العطاء زمن يزيد بن معاوية ، وفى صفة الجود التى وصفه بها فى البيت الثالث لا نستشعر الجدية التى تليق بالملوك .

وشعور ابن المعتز نحو خلفاء بنى العباس بعدم الحب الصادق تفضحه صوره فى الحديث عنهم فها هو يصف الإمام بالكرم والشجاعة وهما صفتان يعتز بهما كل ممدوح ، لكنه لا يلبث أن يفسد هذه الجدية بصورة السيف كالوشاح على كتفى الخليفة إذ يقول :

جُمِعَ الحقُّ لنَا فى إمَام ... قَتَلَ البُخْلَ وأحْيَا السَّماحا
أُلِفَ الهيْجَاء طِفْلا وكهْلا ... تَحْسب السَّيفَ عليه وِشاحاً (٢)

وقد يستشعر الجدية فى مديحهم حينما يتحدث عن ملك بنى هاشم لأنه الملك الذى يمس كيان الشاعر وذاته :

لقد شَدَّ ملك بنى هاشم ... وَأبْدَلَه بالفَسَاد الصَّلاحاَ
إمامٌ أعادَ الهدى عدلُه ... ولاقَىَ به المرتجونَ نجَاحا
ويعْفو ويصْفحُ عن معشرٍ ... ويخضب من آخرين السلاحا (٣)

فالشاعر فى مثل هذا الموقف يعكس أمانيه المرجوة ويسبح فى أحلامه الفنية أكثر من تصويره واقعاً سبق أن وصفه لنا بالضعف والتمزق والهوان ، أو تعبيره عن عاطفة حب للخليفة الممدوح أو ثناء عليه .

تشيع تميم

مازالت فرق الشيعة تدبر ثوراتها وتنظم حركاتها وتبث دعاتها على اختلاف مبادئها ونزعاتها حتى استطاعت فرقة منهم هى الاسماعيلية أن تقيم دولة " العبيديين " بالمغرب ، وسموا

(١) المرجع السابق ، ص ٦٥ .
(٢) ديوان ابن المعتز ، ص ١٤١ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

أنفسهم بالفاطميين نسبة إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم . وحول صحة هذا النسب خلاف كبير تناوله بالتفصيل كتاب أصول الاسماعيلية (١) .

وقد نشأت هذه الدولة فتية تستمد بعض عناصر فتوتها من ذلك النسب ، فلابد أن يكون تمسك الخلفاء به عنيفاً بمقدار حرصهم على نجاح دولتهم واتساع سلطاتها ، ومن ثم كان التظاهر بالتشيع وما يفرضه على قادتهم من سلوك معين عبئاً ينوء به كاهل شاعر مرهف مثل تميم .

لكن التشيع فى عصر تميم لم يعد مظهراً فحسب بل أصبح عقيدة وفلسفة وعلماً وفقهاً وأدباً ، ومناصرة سيف ومآزرة فكر ، وقد تشيع تميم من هذه الجوانب بما يطيقه أو بما يستطيعه ، ومن ثم تحدد موقفه من الخلافة والخلفاء .

تميم والخلافة :

أما الخلافة فما كان ليطلبها وما كانت لتئول إليه ، وقد أدرك أبوه كما أدرك مؤدبوه هذه الحقيقة ، وربما أحس تميم نفسه عدم قدرته على تولى الخلافة وما يتطلبه ذلك من سلوك معين قد لا يحتمله فما عرف من تاريخه أنه طالب بها ، ولا نجد فى شعره بكاء عليها ، بل نحس بالوفاء والولاء لأبيه وإخوته ، وعلى الرغم من ذلك فإن المؤرخين القدماء لا سيما معاصروه شغلوا أنفسهم بهذه القضية ، وفسروها تفسيرات لا تتفق وحقيقة الشاعر .

يقول ابن الأبار فى كتابه " الحلة السيراء " ولاه أبوه المعز لدين الله معن ابن اسماعيل المنصور عهده ، وبه كان يكنى ، فخلع برأى جوهر الصقلى لأنه كان عقيماً لا يولد له (٢) .

ويذهب بعض الدارسين المعاصرين إلى أن حجة العقم لم تكن ثابتة ، لأن ابن الأبار نفسه يذكر بعد نسب تميم كنيته وهى أبوعلى ، وأن هناك مصدراً آخر أثبت أن تميما تزوج وأنجب ولدا اسمه على ، ويرجح أن يكون السبب الحقيقى هو انصراف تميم إلى حياة اللهو والانشغال عن السياسة وأمور الدولة (٣) .

وفى سيرة الأستاذ " جوذر " ما يوصم تميم بالخيانة لأبيه " إذ نمى إلى علم " جوذر " أن

(١) راجع أصول الاسماعيلية بحث تاريخى - فى نشأة الخلافة الفاطمية ، تأليف الدكتور برنارد لويس Bernard Leuis ترجمة جاسم حمد رجب وخليل أحمد جلو دار الكتاب العربى بمصر .

(٢) الحلة السيراء ، لابن الأبار ، جـ ١ ص ٢٩١ .

(٣) تميم بن المعز . عبد المجيد عطية وآخرون . تونس : الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٧ ، ص ٩ .

هناك صلة بين الأمراء الساخطين والأمير تميم ، وأن الرسائل تتبادل بين تميم وهؤلاء الأمراء ، فأرسل " جوذر " إلى المعز لدين الله يستأذن في القبض على هؤلاء الذين يدخلون رسائل القوم إلى القصر بالمنصورية ، ولكن المعز أمره بألا يعرض لهم حتى إذا مرت عدة أيام كتب المعز إلى " جوذر " يا جوذر كنت خاطبتنا في أمر كتب القصر إلى دار تميم وغيره فأمرناك بترك التعرض لهم ، وإذن الله قد جرى على فكرك ما فيه التوفيق ، ونحن مانظن بأحد سوءاً من الأباعد فكيف من الأقارب ؟ قد ظهر لنا بعض مانكرهه فاعمل على حمل ما يكون من كتاب وغيره إلينا ، ولا تنفذه حتى تعرفنا به من حيث لا يشعر بك البتة إن شاء الله " .

ويعلق الأستاذ حسن الأعظمي على ذلك بقوله :

« هذا يدل على أن المعز وعامله « جوذر » ظهر لهما أن هناك فتنة تدبر ، وأن تميما كان أحد أفرادها وأنه كان على صلة بأعداء أبيه ، ومن يدري لعلهم شجعوا تميماً للقيام بثورة على أبيه بعد أن وعدوه بالمساعدة للوصول إلى الملك . إذن كان المعز لدين الله يشك في ابنه الأمير تميم شكا جعله لا يطمئن إليه ولا يثق به ولكنه كظم حنقه على ابنه عساه يرعوي ويعود إلى رشده . وزاد الطين بلة أن أمير صقلية من قبل الفاطميين « أحمد بن حسن الكلبي » أرسل إلى جوذر ، يطلب منه الإذن من المعز في قتل ابنه طاهر لصحبته الأمير تميما ، وما أشيع من القول عن هذه الصحبة غير الطاهرة (١) .

لقد أجهد هؤلاء الدارسون أنفسهم في تبرير حدث سياسي وهو أن المعز أهمل شأن ابنه تميم حين أوصى بالخلافة إلى ابنه عبد الله ، ثم لابنه الأصغر بعد وفاة عبد الله (٢) .

وفي رأيي أن مسألة الخلافة لم تكن تعني تميما بالقدر الذي يدفعه إلى خيانة أبيه المعز والثورة على أخيه العزيز ، لأسباب أهمها أن الخلافة كانت تتطلب منه سلوكاً معيناً لا يتفق وطبيعته ، وأن الجاه الذي يناله منها لم يكن محروماً منه ، وأن بعد الصيت أو دخول التاريخ من باب الأدب لا يقل عن دخوله من باب السياسة ، وله مثل في الشاعر الذي نال إعجابه وهو عبد الله

(٢) مقدمة ديوان تميم .

(٣) يقول المقريزي : « ولعشر خلون من رمضان سنة ٣٦٢ هـ أمر المعز بالكتاب ... في سائر مدينة مصر ، وأثبت اسم المعز لدين الله واسم ابنه عبد الله الأمير . اتعاظ الحنفا .. ص ١٨٨ .
وينكر ابن ميسر : أن قائد جيش الفاطميين القرامطة من مصر هو الأمير عبد الله .
انظر تاريخ مصر ، ص ٤٦ .

بن المعتز ، وكل ما فى الأمر أن المعز ومن حوله أدركوا تماماً أن تميما لا يصلح أن يكون وصيا لخلافة تزعم عصمة من يليها ، وتدعى أنه بشر ليس كسائر البشر ، وعلى الرغم من إقصاء تميم عن الخلافة فإنه أدى دوره فى التشيع على أفضل صورة من خلال أشعاره فى أغراضها المختلفة .

تميم والخلفاء الفاطميون :

عاصر تميم من خلفاء الفاطميين ثلاثة هم جده المنصور ، وأبوه المعز وأخوه العزيز ، ولم تكن موهبة الشعر اكتملت عندما توفى جده ، فلم يترك لنا – فيما بقى من شعره – ما يوضح علاقة الشاعر بجده وكانت فترة خصوبته هى التى حكم فيها أبوه وأخوه ومن ثم فإن علاقة الشاعر بالخلفاء الفاطميين تتجلى فى موقفه من هذين الخليفتين .

أما أبوه فلم يعهد إليه بأى عمل مهم ولم يوله منصباً فى دولته لعلمه أنه لم يكن مراعياً سنن الخلفاء الفاطميين ، ومع ذلك كان تميم دائم الافتخار بأبيه والثناء عليه ، يقول فيه :

وكان من كلّ أذى حماهُ ... ذاك المعزُّ الماجد الأوّاهُ
من لم يكدّر منّهُ جدواه ... ولم يُمحّص إثمهُ تقواه
ولم تغير دينه دنياه ... صلّى عليه اللّه واصطفاه (١)

وقال فيه وقد شكا ألما :

نفسى أحق بشدّة الوجد ... أبداً وأنت أحقُّ بالمجد
اللّه يعلم والمعز مُصدقى ... لو كان يمكن دفعَ مايردى
لجعلتُ نفسى جُنّةً عن نفسه ... ووقيتهُ صرفَ المنى وحدى
وبذلتُ ما عندى له من حجّة ... وإن احتقرتُ له الذى عندى (٢)

ويرثيه قائلا :

من يُعزّى الجيادَ أم مَنْ يُسلّى ... مجلسَ الملك والسريرَ الكئيبا
فقدوا بعدك القلوبَ اللواتى ... شقها واجبٌ فشقّوا الجيوبا
وامُعزّاهُ وامُعزّاهُ حتى ... يغتدى الدمعُ بالدماء خضيبا
فليذُقْ غيرىَ الحياةَ فإنى ... لا أرى للحياة بعدكَ طيبا (٣)

---

(١) ديوان تميم ، ص ٢٢ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٠٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٥٧ .

أما موقفه من إخوته ، فيتجلى فى ذلك الحب الصادق الذى بدا فى رثاء أخيه عبد الله . وكانت الولاية له ، وكان هو المرتقب أن يليها على ما جرت به عادة الخلفاء ، وكان موته مظنة الفرج ، لكن هذه اللوعة التى نحسها فى الرثاء تعكس لنا عواطف الأخوة عالية فوق ارتقاء العروش أو السلاطين :

كل حى إلى الفنـــاء يصيـــر ... والليـــالى تَعلـــةٌ وغـــرورُ
يا أخى أى عَبـرة ليـس تهمـى ... وفـؤاد عليـكَ ليـس يطيـرُ
يا أخـى إن بكتـكَ عينـى فإنـى ... بالبكـا والأسَـى عليـك جَديـرُ
يا أخـى عبـد اللـه أىُّ مَسـاعٍ ... لـم يَفُقْهُـنَّ سـعْيُكَ المبـرورُ
يا أخـى إن صاحبـى وأخـى بعْـ ... ـدَك تلْهـابُ لوْعـة وزفيـرُ
وفـؤادٌ عـن السـلُوّ عنيـد ... ومـن الصبْر والعـزاء نَفُـورُ
كنت ملْءَ الجفـونِ نـورا فأمسَتْ ... ملْؤهـا مَدْمـعٌ عليـك غزيـرُ
خاننـى بعـدك التجلـدُ والصـ ... ـبرُ على أنَّنـى الجليـدُ الصبـورُ
أىَّ أخْلاقـكَ الرضيـةَ يُرْثَـى ... رأيُك العضبُ أم سناكَ المنيـرُ ؟
أم محيـا يجـولُ مـاءُ النهـى فيـ ... ـه وضـاءُ الحجـا القـراحُ النَّميـر
أم شـبابٌ كمـا بـدا نَبْتُـه الغَـ ... ـضُّ وعمرٌ لدْنُ الحواشـى نضيـرُ
فالصـباح الأغـرُّ ليـلٌ بهيـم ... عنـد فقديـكَ والديـارُ قبـورُ (١)

وإذا قارنا هذا الرثاء بمارثى به عبد الله بن المعتز الخليفة العباسى المعتضد ، وضح لنا الفرق بين موقف تميم من خلفاء الفاطميين وموقف ابن المعتز من خلفاء العباسيين (٢) .

ومن معتقدات الشيعة فى الإمامة يبرر تميم قيام أخيه العزيز بها دون سواه ، وما دام يعتقد ذلك فلا شك أنه راض قانع مستبشر لا يحمل حقداً أو ضغينة :

يَهنا العزيزَ من العـلياء منزلـةٌ ... لم يحْوِها ملـكٌ فى سالف الحقَبِ
خلافـةٌ علَـوىٌّ أصـلُ مَورِثـها ... ومولـدٌ نبَـوىُّ الجنـس والحسَـبِ
لقد حويتَ أبـا المنصـور مرتبـةً ... من المكـارم طالـت أرْؤُسَ الرتَـبِ

---

(١) ديوان تميم ، ص ١٤٧ .

(٢) انظر مراثى ابن المعتز للعاضد فى ديوان ابن المعتز . وانظر تعليق د. الكفراوى على هذه المراثى فى كتابه عبد الله بن المعتز العباسى . حياته وإنتاجه . ص ١٠١ .

أنت المسمَّى المرجَّى قبل مولده والخامسُ القائمُ المذكورُ فى الكتبِ (١)

ولقد أثارت علاقة تميم بأخيه العزيز محقق أشعار تميم فأهداها إلى العزيز قائلاً :

« إلى الخليفة الفاطمى الثانى فى الديار المصرية الإمام العزيز بالله أقدم ديوان شقيقه الأمير تميم ابن الخليفة المعز لدين الله عاش على الإخلاص له والثناء عليه فى كثير من ديوانه الكبير وقصائده العامرة (٢) .

ولابن الأبار رأى فى مدائح تميم أخيه العزيز لا أعرف على أى سند أقامه حين يقول : وكان تميم لما استقر بمصر وتوفى أبوه فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة وولى أخوه يمدحه ويداريه طلباً للسلامة منه لأنه لم يكن يأمن عاديته بسبب انخلاعه عن العهد (٣) .

وإذا تتبعنا سيرة الأخوين مدة حياتهما لم نجد دليلا واحداً يقوى ما ذهب إليه ابن الأبار ، وإذا استعرضنا شعر تميم لم نجد فيه أنة مكظوم ، أو زفرة متحسر ، أو حقداً أو كراهية لأخيه .

حقاً نجد فى شعره عتاباً رقيقاً ، وفى تاريخ علاقتهما أن العزيز نفاه إلى الرملة حيناً من الزمان ، ومنطوق الشعر ومجريات الأحداث يؤكدان أن المودة والحب داما بينهما على الرغم من تلك الشوائب .

لقد وشى الوشاة بين العزيز وتميم ، ولكن أية وشاية تلك ؟ .

لا شك أنها تناولت سلوك الشاعر بما هو فيه من لهو ومجون ، وما كان ذلك خافياً على العزيز . . . ولكنه كان مسئولا عن هيبة الخلافة وأمرائها فلابد أن يتخذ موقفاً ، ولعله أراد تهدئة الخواطر فأقصاه عن مصر ، ويستبعد أن يكون النفى لأسباب سياسية إذ لو

(١) يريد أنه خامس أربعة خلفاء وهم : المهدى والقائم والمنصور والمعز ثم العزيز بالله وهو المراد هنا . ونلاحظ أن الشاعر مدح إمامه بأنه القائم الخامس ، وتلك العقيدة من عقائد الفاطميين لا يشاركهم غيرهم من الفرق الإسلامية فيها ، فالقائم هو (المهدى المنتظر) وكل إمام هو قائم بالقوة ، إلى أن يأتى قائم القيامة وهو القائم بالفعل . كما أن الفاطميين ذهبوا مذهب الفيثاغورثيين القائل بأن الموجودات بحسب طبيعة العدد وخواصه ، فلكل عدد خاصية ليست لغيره ، ولكل إمام خاصية وقوة وصفات ليست لغيره حسب ترتيبه فى سلسلة الإمامة ، ولذلك قال الشاعر الخامس والقائم . انظر هامش ديوان تميم ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) مقدمة ديوان تميم . محمد حسن الأعظمى ص ٦ .

(٣) الحلة السيراء لابن الأبار ، جـ ١ ص ٢٩٢ .

كان ذلك لاختار أن يسجنه عوض أن ينفيه [1] .

وفى ديوان تميم أشعار رقيقة فى شكوى الغربة والتبرم بحياة المنفى والحنين إلى مصر ، وتأكيد المودة بينه وبين أخيه .

رضيت بحكم سابقة القضاء ... وإن أضحت تكدر صفو مائى
إلى كم تهدم الأحداث ركنى ... وترمينى بجور واعتداء
يعاقبنى الزمان بغير ذنب ... وتخذلنى يدى ونوو اصطفائى
ويسعى لى لمن لو جاء ساع ... به عندى لخضب بالدماء
أتعلم كيف كان لك انعطافى ... وكيف رأيت قدماً فيك دانى [2]

وكل من تعرض بالدراسة لحياة تميم أو شعره يؤكد أن علاقته بالعزيز لاتشوبها - ظاهرياً - أية شائبة يتفق فى ذلك القدامى والمعاصرون ، وإنما يختلفون فى صدق هذه العلاقة وإذا كان ابن الأبار قد قطع بزيفها ، فإن بعض الدارسين المعاصرين يتساءل : هل كانت هذه العلاقات الطيبة (بروتوكولية) مبنية على مصلحة كل من الأخوين أم كانت مبنية على ود خالص ومحبة صادقة ؟ [3] .

ولعل تميما كان يرهص بشىء من ذلك فانبرى يدافع عن علاقته بأخيه ليقطع الشك باليقين ، فصلته به لا تنبعث من خوف الانتقام ولا يدفعها الطمع فى النوال ولكنه الحب الصادق الذى مزج بين الروحين فلم تعد للحياة معنى إلا فى قربهما ، والحب الغامر الذى غشى على قلب الشاعر فأصبح غاية أمانيه ، وعطل حواسه فأصبح حب أخيه سمعه وبصره ، ولم لا ؟ . وهو الإمام والأئمة ورثة النبى الكريم الذى خلقت الدنيا من أجله ولولاه ما أشرقت شمس ولا طلع قمر.

لم يخل قلبىَ من ذكر الوزير وإنْ ... نأى به شغلٌ أو عاقه قدرُ
يرعاك كلُّ بكلىَ رعىَ مرتقب ... لا رعىَ من قادهُ الأطماعُ والخدرُ
قلبى عليك رقيبٌ فيكَ يكلؤنى ... يا منتهى أملى والسمعُ والبصرُ
لا سرَّنى العيش إلا أن تسرَّ به ... ولا استوى لىَ إلا عندكَ العُمرُ
لولاك لم تحسُن الدنيا لساكنها ... طيباً ولا أشرقتْ شمسٌ ولا قمرُ [4]

---

(١) تميم بن المعز ، عبد المجيد عطية وآخرون ، مرجع سابق ، ص ٢٠ .
(٢) ديوان تميم ، ص ٢٨ .
(٣) تميم بن المعز ، عبد المجيد عطية وآخرون ، مرجع سابق ، ص ١٨ .
(٤) ديوان تميم ، ١٤٧ .

ولقد وثقت هذه الأبيات وأمثالها عرى المحبة بين الأخوين ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ وكلما أغدق العزيز على أخيه من عطائه المال والأمن والصلة ، زادت وشائج القربى ، وتأكد الود ، واتصل المديح ، ومع ذلك يرى تميم أن صنع أخيه معه أفحمه وهو الذى يصوغ الألحان عذبة الروى فى أخيه يشد بها أزره ويبلغ دعوة التشيع فى أوسع نطاق .

أفحمتنى بلطيف البرِّ منك فما ... أدرى بأىِّ مكافاةٍ أكافيكاَ
سارت براعة فهمى فيك فانحصرتْ ... عن وصف معنًى وطيدٍ من معانيكاَ
ماذا أعدِّدهُ حتى أقومَ به ... شكراً وأذكرُه حتى أوافيكاَ
إشراقُ وجهكَ لى أم حُسْن فعلكَ بى ... أم انبساطكَ نحوى أم أياديكا ؟
اللّه جازيكَ عنى يا خليفتَهُ ... جزاءَ مقتدرٍ واللّهُ راعيكاَ (١)

وإذا سرنا مع تميم – كما سرنا من قبل مع ابن المعتز – متأملين القيم التى امتدح بها الخلفاء الفاطميين رأينا صورة مغايرة لماسبق أن رأيناه فتميم فى مديحه يؤكد أحقية الخلافة لأسرته وصدق نسبتها إلى الرسول ويضمن مدائحه الفكر الشيعى ، ذلك الفكر الذى بلغ خصوبته فى عصر تميم ، وغدت له مصطلحات خاصة به فى قاموس اللغة العربية ، وإذا ذكر صفات خاصة بالممدوح فإنه يكرر الموروث عن التراث العربى فيمتدح بالشجاعة والفصاحة ، وشرف النسب ، وطيب المحتد ، وصواب الرأى .

كفُّاكَ فى كلِّ سِلْم ... سحابُ صَوْبٍ نَداهُ
وحسْنُ رأيكَ فى الحرْ ... بِ سيفُه وقَنَاهُ
فأنتَ يُمنى يديْه ... وأنت أمضَى ظُبَاهُ
فاسْلَمْ لسعْدِك يامَنْ ... يُديمُ نحْسَ عِدَاهُ (٢)

ويمتدح بالفصاحة والنسب وأحقية الخلافة :

لأنك فى بحْر البلاغة مفرقٌ ... وفى ساحتى أرض النبوة منجَبُ
ليهْنك أن الفضْلَ أجمعَ كلُّهُ ... إليك أبا المنصور وجدُك ينسَبُ
وأنَّكَ أنتَ المصطَفى المُلكُ الذى ... بطاعته من ربِّنا نتقرَّبُ
ولولاك كان الملك فى غير أهله ... وكان على أفق الشريعةِ غَيْهَبُ (٣)

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٠٩ .
(٢) ديوان تميم ، ص ٢٤ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٤٤ .

والخليفة فى الفكر الشيعى حجة الله ، ووارث الأنبياء :

إنما أنت « حُجّة الله » لاحت ... فى البرايا ووارثُ الأنبياء
فابقَ ما شئتَ فى نعيمٍ من المُلْـ ... ـكِ على رغم أنْفِ الأعْداءِ (١)

فحجة الله من صفات النبى والأئمة عند الفاطميين ، ووارث الأنبياء من الصفات التى أضفاها الفاطميون على أئمتهم ، ويقصد بذلك أن محصول ما جاء به الأنبياء قد جمع فى الأمام الإمام (٢) .

ومن القيم التى امتدح بها تميم أخاه قيمة فلسفية تمثل دعامة من دعائم الفكر الشيعى وهى أن الامامة نص لا يليها إلا الإمام المنصوص عليه :

تخالفَ الناسُ فى فضْلِ الملوكِ ولم ... يأتِ الخلافُ على تفضيلِك البشرِ
وكيف يعتادنا فيك الخلافُ وقد ... أتى بفضلك نصُّ الوحْيِ والسورِ (٣)

وإذا كان ابن المعتز يشيد بنسبة العباسيين إلى بنى هاشم فإن تميما يشاركه فى ذلك الشرف حين يزهو بنسبه ونسب أخيه العزيز إلى بنى هاشم .

لك الشرفُ الهاشمىُّ الذى ... يقصر عنه عُلا مَنْ عَلاَ (٤)

ولا يكتفى تميم بمجرد المشاركة فى هذا النسب الرفيع مع بقية الهاشميين بل يخص أخاه بالدرجات العليا وبلوغ مالم يبلغه غيره من السؤدد والسمو :

فإن تكُ هاشمٌ سادتْ وسادَهُمُ ... أباؤك الخلفاءُ القادةُ الفُضُلُ
فأنتَ آخرُهم عصْرا وأفضلُهمْ ... وبالأواخر يزكو القولُ والعملُ
سادوا ولم يبلُغوا ما أنتَ بالغهُ ... كذلك الأرضُ فيها السَّهْلُ والجَبلُ (٥)

ومن القيم التى رددها تميم فى مديحه الخلفاء الفاطميين قيمة سياسية لها دلالتها على نفسية الشاعر وعلاقته بأسرته وموقفه من نقائض ابن المعتز ألا وهى قوة الخلافة وفتوتها وازدهار عصرها .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦ .
(٢) ديوان تميم ، هامش ص ٢٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٨٣ .
(٤) ديوان تميم ، ص ١٢ .
(٥) المرجع السابق ، ص ٣٤٨ .

إمـــامةٌ مهديّـــةُ اللّـــواء ودولـــة دائمـــةُ البقـــاء
سَالمـةٌ مـن فـتن الأهـــواءِ ولم تزلْ سعى على سيْساءَ[1]

ولكن القيمة العظمى التى طالما رددها تميم فى شعره مادحاً ومفتخراً هى القيمة التى بنى عليها آباؤه وأجداده أحقيتهم فى الخلافة وهى نسبهم إلى فاطمة بنت الرسول وزوج على [2] ، هذا النسب الذى لا يدانيه نسب :

أقيس بك الأملاك طُراً فلا أرى سواكَ زكى الأصْل والفرع والنَّسَبْ
فيابـن رسـول اللـه وابـن وصيِّه وحسبُك ذا جداً وحسْبُك ذاكَ أبْ [3]

(١) المرجع السابق ، ص ١٧ . سيساء أى : حد الشىء
(٢) ستتجلى هذه الفكرة بوضوح فى الفصل القادم من هذا البحث .
(٣) ديوان تميم ، ص ٦٣ .

obeikandl.com